توهجات في مملكة الليل

جودت فخرالدين

عندما تصبح اللغة الشعرية طيعة وخفاقة لدرجة انها تجعلك تتوهم انك ممسك بما لا يمسك ، تتيح لك أن ترى ما يتخفى ولا يظهر جزافا ، يتسنى للقصيدة أن تملك من الرشاقة ما يجعل منها وافدا مهفهفا ، لا يبرحك الا وأنت قابض على شعلة ما كان لها أن تومض سهوا .

هكذا تبدو لغة الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي في مجموعته الاخيرة « كائنات مملكة الليل » التي صدرت حديثا عن « دار الآداب » . أول ما يلفت الانتباه في هذه المجموعة تلك اللغة المصقولة التي تفصح عن رهافة وتمرس يبلغان بالقصيدة ذروة في التشكيل الذي هو عملية بناء القصيدة ، وهو الذي يجعل منها عملا فنيا .

يقول الشاعر صلاح عبد الصبور في مقدمة المجلد الثالث من ديوانه ، في معرض حديثه عن التشكيل : « تنبع فكرة التشكيل من الاقرار ان القصيدة ليست مجرد مجموعة من الخواطر أو الصور أو المعلومات ولكنها بناء متدامج الاجزاء ، منظم تنظيما صارما . لقد بت أومن ان القصيدة التي تفتقد التشكيل ، تفتقد الكثير من مبررات وجودها » .

في قصائد « كائنات مملكة الليل » تندمج العملية الفنية (التشكيل) بعناصر القصيدة الاساسية أو التلقائية اندماجا يلغي أي اثر للتأنق أو الصنعة الظاهرة، أي ان التشكيل لا يبدو مقصودا بحد ذاته ، بل ينضوي في البناء المتكامل كعنصر قد تحقق في نفس اللحظة مع العناصر الاخرى .

في هذا الاطار من التشكيل ، وبلغته النافذة ، يوغل حجازي في غياهب ذاته ــ هذه الردهة من الخوف والتمرد ــ يفتح كوة في الظلام ، ويرتمي :

انا اله الجنس والخوف
وآخر الذكور
أظنها التقوى وليس الخوف
او اني أرد الخوف بالذكرى
فأستحضر في الظلمة آبائي
وأستعرض في المرآة أعضائي
وألقي رأسي المخمور
في شقشقة الماء الطهور

حجازي يغني لعالم من التداعيات ، وهو المنفي الذي حكم عليه بالاستلاب والغربة ، يستجمع قواه ليتهاوى ، يتململ لينتفض ، يهيىء لذاته شركها الاكيد، ويقول بتفجع :

لم يعد من مجد هذه البلاد غير حانة
ولم يبق من الدولة الا رجل الشرطة
يستعرض في الضوء الاخير ظله
الطويل تارة
وظله القصير
أنسج ظلي حفرة
أنسج ظلي شبكه
أقبع في بؤرتها المحلولكه .

أحمد عبد المعطي حجازي شاعر يتحول الى منفى، يتجول في ذاته ، فيتحول الى منفى للوطن ، يصبح الاغتراب لديه عثورا على الوطن الذي يترسب في أعماقه . هكذا يكون الوطن منفيا والشاعر منفاه .

في قصيدة « أسرار » التي يقدمها الشاعر لجرحى الحرب العرب الذين صادفهم في شوارع باريس، نجد :

هل رأيتم دمي يتشمم فيكم صنباه
لمحتم منازلكم تحت جلدي
فكشفتم أمامي ما تسترون

يتنقل حجازي في الاقاصي البعيدة حاملا عذاباته التي ما أن تضيء حتى تتكشف في السر وجوه حبيبة تعبر الى القصيدة برهبة وتشيع بداخلها أسى رقيقا وكآبة دافئة :

انا والثورة العربية
نبحث عن عمل في شوارع باريس
نبحث عن غرفة
نتسكع في شمس ابريل
ان زمانا مضى
وزمانا يجيء
قلت للثورة العربية
لا بد أن ترجعي أنت
أما أنا
فانا هالك
تحت هذا الرذاذ الدفيء !

هذا العربي الضائع ، يقف أمام العالم شاهرا أحقاده واعترافاته ، يتقدم في جهات معادية معلنا سخطه ، يريد القصيدة ادانة أو اعترافا :

انه العصر
هذا الحديد الذي يتطاير ملتهبا
في الهواء الذي كان يحمل ريش اليمام
وخضرة ضوء القمر

في « كائنات مملكة الليل » يتقاطع بكاء خفيض مع تحفز محموم ، يتلاقى العنصران : البكائي والثوري ، ليحددا ملامح المعاناة العربية التي لا تزال تبحث عن متكأ لها ، لا تزال تهوم في صحارى من الرمل الشاسع. يخفض حجازي صوته على تحسر شفيف ولا يلبث أن يصرخ من لسعة الالم منكفئا الى الذاكرة حينا وميمما وجهه شطر الافق البعيد حينا آخر ، من رثائه للمناضل المغربي عمر بن جلون ، هذه السطور :

يتذكر عمر كميونة باريس
وكانت أول درس في الجغرافية
يمتد الوطن العربي شمالا
حتى كميونة باريس
وتمتد نيويورك الى آبار النفط العربية !
يستطيع ابن جلون أن يخلع الآن ثوبا
وان يتجلى لنا في الثياب الآخر !

هكذا يستمد شاعرنا عناصر قصيدته من هموم هي نفسها ايامه . هذه القصيدة هي المعاناه نفسها ، ولكنها في الوقت نفسه ليست مجموعه من الخواطر أو المعلومات او الصور فحسب ، ليست تلقائية الى هذا الحد ، بل انها تعرضت للمسات تشكيلي بارع ، اضفى عليها مبررها الفني .

في قصائد « كائنات مملكة الليل » يتداخل « الذاتي » و « الموضوعي » و « الفني » في تدامج تام بحيث تولد القطعه الشعرية بناء متراصا . هذه الملاحظه يمكن لها ان تشير الى الاشكالية الجمالية للشعر الذي لا يمكن له ان يتخلى عن خصوصيته الفنية دون ان يفسد ذاته ، هذه الخصوصيه هي التي تكسبه حركية التاثير والانشاء ، تكسبه قدره على التوتر والحض ، اي انها هي التي تخرجه الى حيز الفعل .

قصائد حجازي ، لا تقف عند حدود التصوير أو الايحاء او الاشاره . بل تتعدى ذلك الى الرسم والتلوين، تتحول القصيده الى لوحة يتدخل فيها اللون بشكل ساطع . اذ اننا نجد انفسنا أمام أعمال تتشكل وتتماوج مغيره الوانها باستمرار . هذا ما يدل على قدرة شاعرنا الفائقة في النفاذ ، كما يدل على امكانيات القصيدة المتعدده في تحويلها للعالم . هذا التحويل هو السمة التي لا يمكن أن تفتقدها اية قصيدة تدعي الحداثة او التجديد . ان قصائد « كائنات مملكة الليل » تقع من الحداثة في موقع صميمي ، انها تدرك تماما حركية الابداع . هذه القصائد تعرف كيف يمكن لها أن تلتقط التداعيات والتوترات في ذروتها ، وأن تعبر بالقارىء الى حالة من القلق والتبعثر مهيئة اياه للتحفز والتيقظ. ان قصائد كهذه هي الجديرة بأن تحمل هموما جذرية وان تتمحور على محور ثوري ، انها لا تبقي على الواقع حين تلامسه . بل تقف ضده بكل ما أوتيت من مقومات وعناصر . تقف ضده من نواح تعبيرية يفصح عنها النص ، وتقف ضده بما تبتكر من أدوات فذة . هكذا تكون القصيدة دعوة الى التخلخل والانشاء في آن واحد ، تكون دعوة للعبور والانعتاق .

قصائد حجازي (الحديثة) تفتتح مساحات وآفاقا جديدة دون أن تعمد الى الاغراق في الادهاش او الغرابة ، بل انها تحافظ على قدر كبير من السلاسة والشفافية ، وتنسج لنفسها في أحيان كثيرة حلة من البساطة والسهولة .

أغويتني يا أيها الوجه الحسن

ولم تقدم لي الثمن
لا طرحة العرس
ولا فرحة أعضاء البدن

كما انها تلتزم ــ وأحيانا بشكل صارم ــ ببنيـــة ايقاعية تحافظ على التفعيلة وأحيانا على القافية . هذا ما يجعلنا نلاحظ بأن شاعرنا استطاع أن يضيف الـــى تجربته والى تجربة الشعر العربي الحديث دون أن يتعمد أشكالا فاقعة في التجديد كأن يستبدل أوزانه بالنثرية التي يرى البعض بأنهـــا تكسب القصيدة حركة أكثر خفة ؛ استطاع أن يبلغ ذروة في تشكيل القصيدة مـع محافظتـه على مكتسبـات (تاريخية) لا تزال تتدخل ايجابيـا :

أرجوحة الميلاد لا تتوقفي
دوري
وسوخي في عروق الطينة العطشى
وعودي للصعود
ورفرفي
ولدي الذي تعدين من ألف بمولده
وشقي عنك تربتك العصية
وانزفي !

لا يبدو ان احتفاظ الشاعر في هذا المقطع بالـوزن والقافية قد لجم حركة ما للقصيدة ، بل على العكس ، يمكننا القول بأن احتفاظه هذا أضفى عليها توترا وتناغما موسيقيين أكسباها عذوبـة حيث انهما تركاها تنساب دون اثر للصنعة المفرطة . هذه الملاحظة تقودنا الـــى القول بأن الكـــلام على الشعر والتنظير للحداثة فيـه لا يمكن أن يأتيا من خارج النص ، ان ذلك يلزمنا بضرورة الكلام على الشعر من داخل العملية الفنية وعدم الاكتفاء بملامستها .

أخيرا ـ قصائد حجازي في مجموعته الاخيرة هي توهجات في مملكة الليل .

دار الآداب

تقدم

الطبعة الجديدة من مؤلفات

روجيه غارودي

★

- **ماركسية القرن العشرين** — **ترجمة نزيه الحكيم**
- **منعطف الاشتراكية الكبير** — **ترجمة ذوقان قرقوط**
- **البديـل** — **ترجمة جورج طرابيشي**
- **مشروع الامل**